رجل على الأكتاف

قصة بقلم عبد الرحمن مجيد الربيعي

الى ذكرى (ق)

١ ـ النداء :

(تدعو قيادة الكفاح الفلسطيني المسلح جماهيرنا العربية في العراق للتجمع في ساحة عنتر في الاعظمية في تمام الساعة الرابعة من مساء غد الخميس الموافق ..... لتشييع جنازة الشهيد المقاتل .... الذي استشهد في معركة .... بتاريخ ....

التوقيع قيادة الكفاح الفلسطيني ـ بغداد)

وكنت اخفض رأسي قليلا كراقص متعب ادى رقصته واستمع الى تصفيق المتفرجين ثم انفضوا عنه وتركوه مستقليا على خشبة المسرح يسترد انفاسه اللاهثة .

وامامي في الشارع العريض انتشر السكان هائمين طافين كالاشرعة المبحرة فوق سطح المدينة الرمادي دون ان يمنحوا الزمن في حضورهم حرارة الاغاني والاناشيد . لقد مات اذن ، ولم اعد اراه يقعي امامي كالفارس المترجل وهو يراقب فرسه الصهباء التي أخذت تنهش العشب والماء بلهفة صيفية .

وهذه النداءات التي تترى ، في الصحف والاذاعة والتليفزيون، وصوره الملصقة على الحيطان واعمدة الشوارع ، كلها ترفع نبأ موته يافطة عالية لتقرأها كل العيون .

وعندما انفض عن صور الماضي ترابها ساراه ، وساجد الكلمات مجبرة على ان تنقذف بوجه هذا الخمول المريع الذي تنام تحته الاشياء متلذذة بحذرها بينما تنام الجثة الخالدة في صندوق خشبي منتظرة ان تؤدي طقوسها الاخيرة لتوارى بعد ذلك تحت التراب كحكاية حب عتيقة .

٢ ـ الصورة :

في موته وجدت صحف المدينة مادة اخرى لها ، هذه صورته وهو يرفع رأسه الى اعلى باسما . رجل انيق ومهيب ، في صدره تتدلى ربطة عنق مخططة ، وفي بسمته ادانة ماردة لكل الاخطاء التي اقترفت وكل الدماء التي هدرت ومضت هباء .

وأحس الان بارتجافة داعرة تريد ان تذل عظامي ، وتقذف بدمعة مغلوبة الى عيني اللتين لم تعرفا الدمع حتى في لحظات الخيبة والاندحار .

صورته امامي ، تعلو الصفحة الاولى من الجريدة مرفقة بكلمة طويلة سطرها صحفي لا يعرفه ، ولو رأى وضعي الان لقال :

ـ كف عن هذا ايها الحالم !

ولربت على كتفي ، واطلق واحدة من نكاته ، ، ولربما ردد ماكان يقوله دوما :

ـ ما الذي قدمناه غير التثاؤب ؟ لماذا لا نخثر السنوات ونركزها بمعانقة الثورة ؟

وكنت آنذاك احاذر ان اطلق تساؤلا واهنا واحاول ان الم بابعاد موقفه الحاد ، واخفيت صوتي حتى لا يتمطى وسط هذا الاصرار . وظلت الحيرة تنوس في اضلعي معفرة ، بمواويل باهتة قديمة .

وحرنت عن الاتيان بشيء ، وأخذت اراقبه كلبا تنتصب اذناه وهو يتطلع نحو فطة تمخر في كومة من القمامة .

٣ ـ القرار :

رفع رأسه الى اعلى قليلا ، وبدا وجهه هادئا وشاحبا كوجوه القديسين في لوحات عصر النهضة ، ووددت لو اتحسس هذا الجبين علّه ينتشلني من آبار الثرثرة والعار التي اغط فيها .

رفعت كمي قميصي ، وأخذت أمرر اصابعي على شعر ساعدي ، واكز على أسناني، وأقول له ـ حسنا ، وماذا بعد ؟

قال : ـ قد تبدو مرحلة الاختبار صعبة ولكن لا بد منها :

ولاح لي حضوره امامي حادا مفروضا بصلابة على التاريخ والجدران والمقهى والشمس دون ان يستسلم للخيبات التي تحني ظهور الرجال . واعدت كمي قميصي الى مكانيهما وأطبقت زريهما ، وأسندت ظهري للجدار ، عندها اردف :

ـ لقد امسكت برأس الخيط الذي سيدلني على مبتغاي دون ان تتساقط ايامي هباء .

وأخذت اتمتم ببعض ابيات من الشعر التي احفظها واستكين لسماعها ، وبصقت فجأة ، واحسست بعزلتي الباردة عنه، ورفعت ارجل الجراد عن جبيني . وأردت ان انتشل تساؤلاته من شحوبها المكتوم،

وركزت نظراتي في وجهه منتظرا ان يضيف شيئا اخر .

حرك يده في الهواء . وكأنه يزدري الخمول الذي يستقطب وجهي وكتبي وسكائري الملونة الاعقاب . وقال :

ـ سأسافر غدا ، بطاقتي في جيبي ، وبها استطيع اجتياز الحدود انسانا اخر يحمل اسما جديدا مخلفا الرجل الذي كنته هنا.

ومنحني اصراره ولادة فائقة . وكانت الصرامة القليلة على وجهه قد ازدادت وتجسدت ومنحت وجهه العربي رجولة وقوة ودفعت بسنه عشرة اعوام الى الامام. وطرفت عيناه وهو يطلب من النادل ان يحضر له شايا جديدا .

ولم يكن قراره مفاجئا لي ، فهذا الرجل الذي عشت زميلا له سنوات طويلة جعلني احس مرات عديدة بانه لن يمنح الاشياء عريه التام ، وانه كان دائما يخفي شيئا اخر ، وانني لم افهمه تماما،وليس بامكاني حصر ابعاده في مواصفات جاهزة . كان غريبا ومتناثرا بقدر ما كان ثائرا ومتحفزا ، كان التناقضات كلها ، وكنت اكتشف فيه كل يوم شيئا جديدا يعلمني الابحار والتوغل لا التردد والمراوحة عند الاسوار ، واوصلني الى قلوب مدن وحكايات كنت اجهل حتى خارطتها في اطلسي الفارغ .

وعندما دخل المقهى صبي يبيع السكائر المفردة ناداه ، ومد يده الى العلبة وانتزع منها اثنتين ، قدم لي واحدة وغرس الاخرى في فمه ، واتسعت حدقتا عينيه وهو يملأ صدره بنفس قوي من الدخان وهنا اجتاحته موجة من السعال اوقفها بجرعة من الماء رماها في جوفه مسرعا ، ثم عاد ليدخن بهدوء وانتشاء . وكأنه يمارس طقوسا وثنية خاصة ويقدم نذورا لآلهة لن نطولها .

وسألته : ـ اتريد ان تحملني كلمة ما ؟

قال :

ـ اية كلمة اتركها : لا اريد ان اصدع رؤوس الاخرين بتسجيل وصية حافلة نجلب الدمع للعيون ، ان كلمتي الوحيدة هي انني رجل امتلأ فحفه بالخطب والنظريات ، والان اراد ان يقرأ سطور الاختبار الذي تقدمه الاشياء وهي تعانق رصاصاته الاولى بطهرها وعذريتها . أليس هذا كافيا ؟

وبدا لي منعتقا من كل ساعاتنا النخرة القديمة ، سائرا في مجرى اخر ، متدفقا عذبا كمياه الينابيع ، عارما كالشلالات ،وتاملت هذا الهيكل الادمي الذي طاردته عيون الجواسيس والمخبرين ، وتساءلت في سري : أيريد ان يسجل برحيله ادانة ما : أيريد ان يرفض كل الانتهاكات الواطئة التي كانت تطارد حياتنا وتقصفها وتزلزل اركانها الراكدة ؟

وحركت كلماته وجه المستنقع الآثم . وخفتت مبافتتها لي عندما ادركت انه لم يقع تحت مغالطات عاطفية طارئة ، وحاولت ان ابعد عن وجهي اي تعبير من الاندهاش افرشه امامه ، وانا ارد عليه :

ـ اهذا كل شيء ؟

وهز رأسه بالايجاب ، ثم اضاف :

ـ في الاوقات الحاسمة نحن مطالبون بان نكبح جماح عواطفنا. واحسسته يطير من امامي ويحلق طائرا اسطوريا يقبل الاعالي والريح . صارخا وسط عهر الاشياء . مرعبا التاريخ والرؤوس المطأطئة ، مدينا القضاة والجلادين ، وأنا امامه ضئيل اتربص صيدا لم اشخصه لاطلق عيارات بندقيتي التي تتمدد على ركبتي كخشبة عتيقة، وتذكرت كلمات حماسية تقول :

ايها الجاثمون هيا ارفعوا رؤوسكم
احملوا للجيل الثار والاحتجاج
واحتجزوا النور في دروبكم
ولا تتركوه يمكث طويلا
نهبا للافاقين واللصوص ونسل المواخير .

ودفنت وجهي بين يدي ، تهزني نوبات المقرور الباحث عن الدفء من هذه الكلمات الثائرة عليها تعيد الي يقيني وتمنحني حماية خاصة من قرون الفوضى والجليد ، وأحسست ان غيابه سيكسر ضلعي ولكن كل توسلاتي لن تفلح في أن تكون راية امان ينضوي تحت لوائها هذا الثائر الذي يتوهج امامي الان فكيف القي عليه بصفائح الماء ؟

واخذ يمسح بكفه على صدغه ، ثم هز رأسه . وبعد ذلك كور قبضته وغرسها على المنضدة امامه وأراح رأسه عليها محاولا ان يتماسك اكثر حتى لا يطلق كلمة قد تفتت اصراره الخارق .

٤ ـ الميلاد :

يده ما زالت على كتفي . تقتل الذعر في داخلي وتطوي من أيامي كل حكايات التأرجح والابتذال .

وعلى تخوم المدينة الرمادية تتلوى الاباطيل . وتفتح الاشياء افخاذها بعهر ليضاجعها الزور ثم تستسلم بعد ذلك لقيلولة ملوثة. ونبدو الرؤوس الصفراء في دورانها كعشرات اللقطاء الفارين الباحثين عن مرتع وهوية . ووجهه الباسم الذي يعلو الصفحة الاولى من الصحيفة وحده الوريث الجاد لكل التطلعات المزروعة في رحم ارضنا المستلبة التي ستتمخض عن الشروق الاكبر الذي ينسف الكذب والجسور والاحلاف ويئد حتى الاخير فجيعة الاستلاب الثقيل التي تسحق الرؤوس العذراء .

وطويت الصحيفة ثم دسستها في جيبي ونهضت ، كلماته وحكاياته معي في مهرجان حافل يهجني كملايين الصباحات الخضراء التي ولدت صاحية متوهجة طاردة اليباس والعتمة والنضوب .

وامتلأت برائحة المطر والاشجار والشطآن ، وأخذت أمشي .

بغداد — عبدالرحمن مجيد الربيعي

دار الآداب تقدم

للشاعر

محمد عفيفي مطر

صدر حديثا — الثمن ٢٠٠ ف.ل